ملاحظات حول كتاب "أبعاد القومية اللبنانية"

محاولة لترسيخ الوهم في الواقع

قضايا قومية

ان طرح المسألة القومية طرحا لاهوتيا لا يمكن ان يكون الا باعثا على المزيد من التناقضات والصراعات الداخلية، خاصة في عصر الامبريالية حيث يخوض النضال القومي التحرري معركة حياة او موت ضد قوى الامبريالية التي تهدف من خلال سيطرتها على الامم المغلوبة الى ابادة هذه الامم وازالة معالمها في سبيل المزيد من الاستغلال والسيطرة.

والطرح اللاهوتي (وهو بحقيقته منطق القومية اللبنانية) لا يحتمل تناقضا بين قومية اسمها لبنانية والقومية العربية وسيحيل مؤدي الى شد لبنان الى الوراء وابقائه في مرحلة الصراع اللاهوتي الطائفي الذي ينصرم حقة في مرحلة سابقة للتحرر السياسي، اي مرحلة اكثر بدائية في فهم الوجود.

لذلك يبدو ان صدور كتاب "ابعاد القومية اللبنانية"، وهو مجموعة محاضرات جامعة الروح القدس (الكسليك، عام ١٩٧٠) يشكل تحقيقا من الروح القدس في امور الدنيا، ومحاولة حرية ضد فصل الدين عن الدولة. هذه المحاولة، بحد ذاتها، تتناقض مع اي صبغة قومية، اذ ان البحث في القومية امر سياسي يخرج عن نطاق اللاهوت، ان لم يكن نقيضه.

ولما كانت المسألة القومية تتعلق بالوجود المادي والاجتماعي لمجموعة من البشر، وهذا الوجود يكتشفه العقل، بينما اللاهوت مصدره فكرة مسبقة عن وجود يسبق الحقيقة والمجتمع ويعطيهما سبب وجودهما، وهذه الفكرة (اللاهوتية) لا تخضع للنقد العقلي (بل هي التي تعطي المادة والعقل سبب وجودهما)، فان الطرح اللاهوتي للمسألة القومية لا يمكن الا ان يكون مليئا بالتناقضات والمغالطات، وبالتالي تكون النتائج مجرد اوهام يحاول اصحابها صياغة الواقع ليطابق الفكرة المسبقة.

■ ترسيخ الوهم في الواقع

وفكرة القومية اللبنانية ليست تعبيرا عن واقع ملموس بقدر ما هي محاولة لترسيخ الوهم في الواقع، وبالتالي تكف حاجزا دون اكتشاف الواقع الحقيقي اكتشافا مانعا الى صياغة محصب المنطلقات والحاجات الاساسية. كشف هذا الوهم هو هدف هذا المقال الذي سيقتصر على تناول (المحاضرات) الرئيسية من الكتاب.

اول فصول الكتاب محاضرة بعنوان للأزان بعنوان "اثر الامام الاوزاعي في تكوين القومية اللبنانية". كتبها مستحضرا بتشفع هذه المحاضرة وهو مؤرخ القصص، وقد تكلم فيها عن اشياء كثيرة الا عن علاقة الامام الاوزاعي بتكوين القومية اللبنانية. فهو يرى هذا الوطن الذي احتضنت في جوهره مقومات الروح... وتميز بانفتاحه على الدنيا... ولكنه لا يرى ان الانفتاح على الدنيا صفة من صفات اي مجتمع يرتكز اقتصاده على التبادل التجاري، اي انها صفة ناتجة من واقع مادي تاريخي. ليست منزلة من الروح مهما بلغت قدسيتها وليست مقصورة على لبنان، اذ يمكن وجودها في اي مجتمع ذي اسس مادية مشابهة.

اما القومية في فكر الكاتب فهي تفترض في الاساس مجموعة عناصر من ارض واقتصاد وتاريخ وامال... وهو يتناسى عنصر اللغة واثره في تكوين القومية، تلافيا للمشاكل التي يمكن ان يضطر اليها في معرض حديثه عن اللغة العربية في لبنان. ثم يتناقض الكاتب مع نفسه عندما يورد قولا جامعا للتاريخ مؤكدا، بعضه، من اعمق ما كتب في الموضوع، ولا سيما في معتقر المصرية وفي تركيز القومية على اسس روحية... فكان العناصر المذكورة انفا، من ارض واقتصاد وتاريخ وامال، اسس روحية غير مادية.

■ من الاوزاعي الى غورو

ان لبنان في فكر الكاتب خارج التاريخ، اذ بالرغم من قوله: انه "لا شك ان فكرة القومية بمفهومها الحاضر لم تكن معروفة قديما، فهي على العموم فكرة حديثة"، الا انه يصر على التكلم عن اثر الاوزاعي كعنصر من العناصر الاولى التي ساهمت على تكوين القومية اللبنانية... اذا كانت الفكرة حديثة فهي بلا شك تنتمي الى العصر الحديث الذي ابتدأ بعد مئات السنين من موت الاوزاعي. فكيف يساهم الاوزاعي في فكرة لم تكن موجودة في ايامه؟ ان هذا نوع من الفكر المثالي الذي يحاول صياغة الواقع حسب فكرة مسبقة a priori، اي فكرة لم تثبت صحتها التجربة. فالكاتب يعترف بانه "لا شك ان الامام الاوزاعي لم يضع فيستحيل ان يضع للقومية اللبنانية، او ان يضع لها النظرية العلمية، فهو ليس عالما مختصا بالقوميات من جهة، ومن جهة ثانية لم يكن الامر ممكنا لا في لبنان ولا في اي بلد من بلدان العالم في تلك الحقبة التي يفصل بينها وبين القومية بمفهومها الحاضر اكثر من الف سنة"... لكي يكون لهذا القول معنى يجب ان يكون هناك مفهوم قديم ومفهوم معاصر للقومية، ويجب ان يفترضهما الكاتب. ونحرص ان يكون الكاتب معتمدا، عن وعي او غير وعي، لمفهوم القومية اما ان يحاول الكاتب الصاق صفة ما بالامام الاوزاعي ليست له فهذا امر واضح، لا ان هناك الكثير من الاشخاص المميزين الذين تناولوا على لبنان قبل وبعد الاوزاعي، والغريب ان يكون للاوزاعي وحده الاثر في تكوين القومية اللبنانية. ومن ناحية اخرى، ان القومية تتولد عبر التاريخ نتيجة لواقع مادي تاريخي معين، فهي نتيجة لنشاط جماعة بشرية تتولد خارج ارادة الافراد وبالرغم عنهم ولا تصبح شيئا واقعا. ولا يكون للافراد القلة اثر فيها الا في مرحلة متاخرة عندما يتحقق وجودها سياسيا في الامة الدولة. وهذه المرحلة لم يصل اليها لبنان بعد. ففي لبنان لا وجود لدولة سياسية بل لمجموعة كيانات طائفية. العلاقة في لبنان هي الوسيط بين الفرد والدولة، والدولة لا تصبح دولة سياسية مستقلة الا بالتحرر السياسي وتحطيم الطائفة، والطائفية.

اما الامام الاوزاعي فهو شخص شهير اسلامي دافع عن الحق والعدالة والتسامح في مجتمعه، وشرع حاملا مراتب البشر الشاملي. ولو كان في امكان المرء ان يرى ضد النظام الذي يستغل الانسان، في المدينة، ذلك ان هذا النظام لا يمكن نعته قوميا الا كتعبير للشعر العربي.

لنختم الكلام هنا عن محاضرة الشيراز قازان بالقول ان اثر الامام الاوزاعي في تكوين القومية اللبنانية امر لم يستطع الكاتب ان يبرهن عليه، فقد اعترف بنفسه من غير قصد بان لا رابط بين القومية اللبنانية وبين الامام الاوزاعي. كلامنا ينتهي في حكم مستكشف عن الامر: اذ كيف يمكن ان ينتمي الامام الاوزاعي سيادته الشوال المتوفى سنة حوالي ١٢٠٠ م؟

■ الصيغة الرياضية

اما محاضرة الاستاذ المحامي الدكتور كمال يوسف الحاج، فالبرهان فيها على القومية اللبنانية يتخذ "صيغة رياضية"، تقوم على برهانين كبيرين: البرهان البيئي والبرهان الواقعي... تتنتهي بالبرهان الجدلي.

من جدلية الشكل والمضمون، يستنتج انها "باسم نحل مزجهنا على داخل الشيء او دلالته".

وان لا "عرفة" لبنان الا بالاسم، لم يتبع المطلوب الريكاردي يكفي ما لبي بهذا الاسم، "فهو اي الاسم ليس اسم لبنان... وليس الا الخالقة، وليس الوطن العزيز والعصيب... وهو ليس اسم كيان... الكيان اللبناني، او كيان لبنان... ان لكل شيء كيانا - ولكن لكل شيء كيانا يميزه عن باقي الكيانات... فلا بد من صفة تعود الى الشيء المعرفي". فاي نوع هو هذا الكيان اللبناني؟ اهو كيان جغرافي؟ اهو كيان اقتصادي؟ اهو كيان اجتماعي؟ اهو كيان لغوي؟ يقول الاستاذ الحاج ان ليس على كل ذلك تقوم الحركة، فالحركة تقوم على الكيان القومي. ان الكيانات التي تكررت لا قيمة لها الا بمقدار ما هي كركة الكيان الموجود في الحرية السياسية.

هنا نترك غاية هذا المنطق المرتبط بالشكلية التي تحتاج اليها نترك الشيء بينما هي لا تترك الا الظاهرة ساحبا او غيرها من الظواهر وبالتالي لا تترك جوهر الامر مدار البحث. فالجوهر هو مجموعة الظواهر التي تشكل في تركيب الوحش بكلمة اخرى، نحن لا نترك الجوهر الا عندما ننظر الى الظواهر بطريقة شمولية، تراها ككل "لا يتجزأ" لكي تكون مفهومنا دياليكتيا، ان تعرف بالحقيقة بين الشكل والمضمون، فالديالكتيك ضد الفصل بين الشكل والمضمون، مهما اضطفنا عن العلاقات بينهما. ان تراكم الظواهر ليس تراكما حسيا فقط، بل هو تراكم عضوي ينتج عنه صفة نوعية جديدة هي الجوهر. فالجوهر هو في النوع لا في الظاهرة. بهذا يكون برهان الكاتب الجدلي سفسطة لا جدلا. انه يفصل الكيان الاقتصادي والجغرافي والاجتماعي واللغوي عن القومية. فالقومية بنظره شيء موجود، مستقل لا عداها، وما عداها من الكيانات (او العوامل) الاقتصادية والجغرافية والاجتماعية واللغوية ينتج من هذه القومية، او لا ينتج، كما يرى الكاتب. والحقيقة هي ان مجموع هذه العوامل يشكل الوجود القومي. والقومية هي نتاج هذه الوجودات الملتحمة بطريقة او باخرى. توجد العناصر ذاتها عند جميع الشعوب ولكنها التركيب بحسب منطقة، من هنا تكون الفروق القومية. تكون القوميات، القومية، اذن، وجود مادي تاريخي وليست مجرد اسم.

نرى هل ان الكاتب صب براهينه على التعريفات فحسب، ساخرا من ذلك لبرهنة ان القومية الشاملة مجرد اسم. اسم فرس؟ ام هل هو من هؤلاء الشوفينيين الذين لا يعرفون القومية سوى الاسم؟ ربما كان لستشهاده بالقول المطران سعده وعبدالله سعاده دليلا على ذلك.

ان شكليته في الحل، التي تنتمي الى مدرسي العصور الوسطى، تمنعه من رؤية القومية كواقع حقيقي، لذلك نراه يقول: "ثمة هجوم على لبنان يشنه قوميات لا انسانية: القومية العربية، القومية السورية الاجتماعية، القومية الصهيونية". ان معاملة القوميات هي من صميم الشوفينية اللبنانية التي لا ترى من القومية محتواها الانساني والتي تخدم ولعا غير انساني. مضمون القوميات الثلاث يختلف بين الواحدة والاخرى، فالقومية العربية هي وحدها التي يلتقي النضال لتحقيقها (في الوحدة العربية) محتوى تقدميا انسانيا. القومية ليست غاية بحد ذاتها، وهي لا تكون غاية الا بمقدار ما تسهم في دفع الانسان الى الامام والغاء الاستغلال والسيطرة. القومية الصهيونية عنصرية امبريالية. معادية للعرب، وتكل اليهود عن الانعتاق والانفتاح الانساني. الذي هي غير السلبية. القومية السورية، وجدت التكريس السوري في جسم الامة العربية ولم يره محاولا ان تكون نقيضا لها، غير السلبية. وكذلك استطاع القومية اللبنانية، فمثل موجود كيان سياسي. ومن يريده ان يكون قوميا، انما يريده من وراء ذلك ان يصارع ويلغي ما يحصله النضال القومي العربي من مكاسب في تحرر الانسان العربي والنضال ضد النضال القومي العربي ضمن ضد الامبريالية والسيطرة والاستغلال، ولتجزئة الوطن العربي ضرب لهذا النضال.

ان التناقض القائم في الواقع ليس بين القومية العربية و"القومية اللبنانية"، فهذا افتعال تصنعه البورجوازية والرجعية اللبنانية. التناقض في الواقع هو بين امكانية الوحدة العربية التحررية الثورية من جهة، وبين الواقع التجزيئي الذي يحمل محتوى رجعيا يخدم مصالح الامبريالية (اي انه محتوى غير انساني).

والوحدة العربية ليست تحديا للبنان، بل هي الاطار الذي يشكل شرطا موضوعيا شعوريا لتحرر الانسان في لبنان وباقي الاقطار العربية، انما تعني التحرر السياسي للانسان العربي وتخليصه نهائيا من ضرب الامبريالية ووسائلها والقوى الداخلية من المتاجرين ومن اجل الاستغلال والسيطرة.

وعندما نفهم حقيقة التناقض الموجود يهوي منطق كمال يوسف الحاج - انه تناقض عقلي (الذهن) ولا علاقة للتناقض مع الواقع - لذلك فالعبارة القاطعة التي ينتجها ما هي الا فقاقيع ذات رائحة كريهة.

■ الوجود اللبناني وتفيئه

ننتقل الان الى برهانه العملي، يقول: "ان تغيير التصور القومي في الزمان والمكان امر ضروري لا بد له من شروط ومكان. وهذا الترمكن الذي يتجسد به التصور القومي هو الانقطاع السياسي (الدولة). ولا يهم اذا كانت هذه الدولة امبراطورية او ملكية او جمهورية او راسمالية او اشتراكية".

ونختصر برهانه العملي بما يلي: القوميات الاخرى لم تتحقق سياسيا، القومية اللبنانية وحدها تحققت في وحدة سياسية. ان القوميات الاخرى موجودة بالقوة، والقومية اللبنانية موجودة بالفعل... سواها غير موجود الا بالقوة. على سواها ان ينتقل، اما هي فموجودة بالفعل والكمون... بهذا يتوقف المنطق العملي، الذي يشير اليه الدكتور الحاج ولا يطبقه، وربما كان لا يعرفه. الواقع هو ان كل موجود يحمل نقيضه في ذاته، هنا صميم المنطق الدياليكتيكي. فاذا كان لبنان موجود بالفعل، فما هو النقيض؟ بكلمة اخرى ما هي الامكانية التي يحملها لبنان في ذاته، والموجودة بالقوة (كامكانية)، والتي تحققها يلغي الوجود اللبناني السياسي؟ نحن نقول الوحدة العربية، ان الوجود اللبناني السياسي هو واقع التجزئة، والوحدة نقيض ذلك. الوجود اللبناني السياسي العالمي يعني الطائفية والاستغلال الراسمالي الكومبرادوري المتبع. بحيث تكرس الاستقلال، والوحدة العربية، بكونها جزءا من نضال شعوب العالم المتخلف. ان ثم الا تجسيدا لمنطق الشعب العربي في نحو الاستقلال، والسيطرة الامبريالية. والنسبة لها اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وعسكريا. وكونها لتحقق بعض ان جميع هذه الاماني في التحرر لم تتحقق بعد. واستطاعة تحقيقها تمثل بنور التحرير. بينما الدولة السياسية في لبنان هي نقيض التحرر. يجب ان لا يقتصر في مطالعة موضوع ما على ما هو قائم فقط، بل على ما يمكن ان يتحقق من خلال فهم التناقضات فيما هو قائم.

يحاول الدكتور الحاج ان يلغي امكانية الوحدة العربية بحجة عدم وجود وحدة من جهة الارض والاقتصاد والتاريخ... ولكن هل توجد هذه الوحدة في لبنان؟ او، هل يجب ان يكون هناك تشابه في جميع اجزاء الوطن للجغرافية والاقتصادية والتاريخية ليكون الوطن موجودا؟ هذا لا يتوفر في اي وطن. ولنحن نقول ان جغرافية لبنان واقتصاده عوامل لا تجعل من الكيان اللبناني الا مسخا لكيانا شاذا. زراعته لا تكفيه. صناعته ضعيفة استهلاكية تعتمد على قطاع الخدمات. وقطاع الخدمات يعتمد على روافده من خارج لبنان. لذلك فان وجوده مهدد دائما. وسياسته مبنية على التوازن بين الطوائف، وينعكس توازن الطوائف في السياسة الخارجية بمحاولة ايجاد توازن بين الامبريالية وقوى التحرر العربي.

■ ايضاح واعتراض

ثم يخصص الكاتب فصلا خاصا تحت عنوان "ايضاح واعتراض" ليقول ان لبنان هو الذي نادى بالقومية العربية ليتحرر من الكابوس العثماني. وحين راى انها تحققت عليه ارتدت عليه لتخاصمه اوجد القومية السورية الاجتماعية ليجد خصما اخر: القومية العربية... في نظره المسألة كلها كانت في نكبة... الوجود القومي ليس الا تطورات قومية حقيقية في نظره، بل هو فكرة تقلقها عقول صغيرة تريد ان تلغي غيرها... والواقع هو ان الشعور القومي العربي. اذا ولد في لبنان ثم يولد فقط عند المثقفين، بل نتيجة لشعور شعب لبنان، الاكثر تقدما من غيره من الشعوب العربية، بان لبنان لن يبقى وان يستطيع النهضة دون الدخول في محيطه الطبيعي، العربي. القومية توجد بالرغم من ارادة الانسان وخارج ارادته، وبذلك تكون حركة موضوعية. نحن نكتشف هذه الحركة، ونساهم في تكوينها وتحسينها بقدر ما نكتشفها ولكننا لا نخترعها ولا ننشئها. وهي ليست وجودا ثابتا في الكائنات. الا في ذهن صغير للفكر عن استيعاب حركة التاريخ.

ان التسمية القومية التي يعطيها لبنان اليوم لا تمت بصلة الى النظام الطائفي. هذا النظام "قائم"، شيء اساسي. ان ما يهم الكاتب هو التكلم، وسترى هذا التكلم (النظام الراسمالي، التبعية للراسمالية... الراسمالية الغائبة والامبريالية، التجارة الوسيطة الكومبرادورية)، كل هذه اشياء تبدو ثانوية في نظر صاحبها. وهي لا تهمه. بكلمة اخرى لا يهتم صاحبها بالانسان في لبنان. يعني ان نقول ان الهم فقط هو بالارض والاسم. ليبتعد عن تركيبته الطبقية. وطرحه في القضية متبع حيث نحن نصل الى الكلي بناء على اعتبار الاجزاء. ولا يهمنا هذا الكلي الا بقدر ما يكون حرصا في سبيل السعادة الانسانية. اما وضع الكلي في موضع السابقية a priori للانسان والتصميم لهذا ما نناضل ضده. بكلمة اخرى نحن نناضل ليس فقط ضد الشوفينية اللبنانية، بل ضد اي شوفينية اخرى، حتى الشوفينية العربية. ونحن نسعى لدعم الوحدة العربية لانها بالضبط ذات محتوى اجتماعي تحرري تقدمي ثوري.

■ رسولية لبنان

اما عن "رسولية لبنان"... الرسولية التي يراها ويريدها الدكتور الحاج هنت ولا حرج... ابراهيم وراء حسم عوامل الحصار المسألة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية... و... التخريب لدى المسيح، وسلطت سيفا القوميات و... الانبياء... قوة بشرية خالقة على كل الشعوب والامم تعمل من عهد المسيحيين بالمساواة على سبل الاقتصاد التي هي (ا... القوميات والاديان). هذه القوة هي في تعاليم المسيحية التي استطاعت الان ان تعزز الحالة في الاجتماع والسياسة والاقتصاد بتحديها التفاوت لدى الافراد والشعوب. حرمت الدين، حرمت القومية، حرمت السوق، حرمت الاصالة، حرمت الاستقرار، حرمت علاقات الدول بعضها ببعض. حرمت اسس التعامل بين الافراد والمكرمات... الى اخر مبررات الحروب والحروب الصهيونية، على ان يقول اليهودية وراء...

محاولة لترسيخ الوهم في الواقع

كل شر ، وسبب كل آفة . الا يذكر ذلك بأيام عفلق والنازية ؟ وليس الا لسعيد ادرك ان ، للقضية الفلسطينية ناحية كوزمولوجية واسكاتولوجية ... ، وفي لبنان ، ليس الا كمال الحاج من ادرك هاتين الناحيتين . لبنان ، وحده ادرك ان سر الفداء هو في اساس القضية الفلسطينية ، ... كوزمولوجيا واسكاتولوجيا . اما كيف يدرك لبنان القضية الفلسطينية لغير كوزمولوجيا ، كيف يدركها ويساهم في النضال من اجل تحريرها في الواقع ، هذا ما لا يجرؤ على ذكره ، رغم جميع حذلقاته الفلسفية .

■ المدرسة اللبنانية .. الشخصية اللبنانية

اما محاضرة نقولا زيادة ، وعنوانها ، المدرسة اللبنانية والشخصية اللبنانية .. فهي تتألف من شقين . الشق الاول يعني بتعريف الشخصية اللبنانية ، وخصائصها : الانفتاح حب الحرية ، والجد في العمل .

والشق الثاني سرد قصصي للتاريخ المدارس في لبنان . نحن نعلم ان الانفتاح يزداد بين الشعوب التي تعتمد على التجارة ، ويكون قدره قليلا كلما كان الاقتصاد للشعب اقتصادا طبيعيا . فهو اذن ليس صفة مميزة لشعب من الشعوب بل تتميز بها مرحلة من مراحل تطوره ، اذن هي ليست صفة مميزة لاي شعب بصورة دائمة . اما الحرية ، فهي ليست صفة لبنانية محض ، اذ ليس من شعب او انسان يكره الحرية . اما الجد في العمل . فهو صفة ، غير مرغوب فيها ، ولكنها مفروضة على جميع الطبقات الدنيا التي لا تملك الا قوة عملها تبيعها في سبيل كسب العيش ، ادنى العيش .

ثم يتساءل المحاضر : في اطار هذه المميزات للشخصية اللبنانية : ، ما الذي يمكن ان يقال عن المدرسة ؟ ، بعد قراءتنا للمحاضرة بضع مرات نقول : لم يقل المؤلف شيئا سوى سرد تواريخ المدارس في لبنان سردا لا تاريخيا . صلة المدارس بالثقافة اللبنانية ، وصلة الثقافة بالتطور المادي التاريخي في لبنان ، وارتباطها بالكيانات الطائفية ، كيانات التفرقة البغيضة ، كل ذلك لم يرد في المقالة . ربما يرد الكاتب ان يربط بين المدارس وطابع لبنان الطائفي ، ذلك اما تهربا من الجواب ، ولما لقصور النظر وضيق الافق عنده . نحن نعلم ان الثقافة في لبنان ، ما دامت بايدي الطوائف والاجانب ، ليست الا رمزا وسببا من اسباب التفرقة والكيانات الطائفية التي تكرس الاستغلال والذل الانساني . وعدم قدرة المحاضر على التطرق الى هذا الموضوع يجعل من محاضرته سلسلة مخلوقات بيفانية .

■ اسطورة فخر الدين

اما عن محاضرة ، فخر الدين والفكرة اللبنانية ، بقلم كمال صليبي ، فهي مقالة تاريخية جيدة عن حياة الامير فخر الدين ، يستنتج منها الكاتب ان الامير ، لم يطمح اطلاقا الى تحقيق مخطط معين لجميع المناطق اللبنانية في دولة موحدة ، ... ، ومن الاكيد ان فخر الدين في زمانه لم يستعمل كلمة لبنان مرة واحدة بمدلول سياسي ولم يعتبر نفسه لبنانيا ... ، . ومن ناحية اخرى يقول الكاتب ، وان نحن تأملنا اليوم في اسطورة فخر الدين هذه لوجدناها ، بالفعل ، ابلغ من الواقع ، .

الى ماذا يشير هذا الكلام ؟ الى انه ليس هناك علاقة سببية بين فخر الدين والكيان اللبناني الحالي . والى ان محاولة اتهام الاوائل بفكرة الكيان اللبناني هي محاولة مصدرها عقدة نفسية وتشنج فكري ، لان الاوائل لم يكن يهمهم هذا الموضوع ، موضوع الكيان اللبناني . ومن اجل ذلك يلجأون الى تضخيم اخبار الامير المعني ، وخلق اسطورة من بطولاته الشخصية . لقد كان العصر عصر دويلات ثم زال ذلك العصر ، وقد نشأت دويلات كثيرة ثم زالت ، في ظل الضعف الذي

> ■ **الكيان الطائفي في لبنان يحاول تزوير التاريخ للحفاظ على الوضع الراهن**

عانته الدولة العثمانية ، والكيان الطائفي في لبنان ، وهو مكرس لخدمة مصالح الطبقة التجارية والاقطاعية الحاكمة ، يحاول تزوير التاريخ الماضي لخلق قومية لبنانية ، من اجل الحفاظ على الوضع الراهن ومصالحه الاقتصادية والسياسية . ان سرد للتاريخ في سياق البرهان على القومية اللبنانية ، هو محاولة لفرض شيء ولو مؤخرا على التاريخ القديم ، وهذا ما نعنيه عندما نقول تزوير التاريخ .

■ البهلوانية والشعوذة

واذا اردت ، ايها القارىء العزيز ، ان تقرأ خطابا مليئا ببهلوانية الكلمة وشعوذة الفكر ، على الطريقة السعدقلية ، فعليك بقراءة فصل ، ديناميه القومية اللبنانية حاضرا ومستقبلا ، . ولا تجزع ان قرأت بسرعة وحسبت انك لم تفهم ، اذ ليس في المقال شيء يستحق الفكر سوى خلط والتهويش الفكري .

يبتدىء الخطاب هكذا : عرائس العلم ، مناهل العلم ، مناهل الحضارات ، لغات الامم ، ميزان الحق ، قوس الحضارة ، بابل ذات العامة ، غرائب الدنيا السبع ، جميعها تطلعت من لبنان ، فاض بها لبنان على العالم نورا الهيا ، وقال للعالم هاك النور ، فشع النور في العالم ، لم يحدث شيء في العالم الا واساسه في لبنان ، في ظلال الارز الخالد الابدي السرمدي ، وبما ان سعيد عقل مركز الاشعاع في لبنان فان العالم اساسه من سعيد عقل ، وبما ان نجيب جمال الدين واحد من حملة الطبول لسعيد عقل ، اندمجت ذاته بذات سعيد عقل ، فان العالم اساسه هذه الذات الصغيرة .

اما الصفاقة فتتجلى كاملة عندما يقول حضرته : اما اذا رأيت اللبناني يشرق ويغرب ، فليس هربا من وطنه ولجوءا الى غيره ... ، . وكلنا يعلم ان هذا الكلام تمويه للحقائق ، فالمهاجر لا يهاجر راغبا بل مضطرا . وكم من مغترب يحمل صورا اليمة في نفسه من ذكريات حياته في لبنان . لقد رأيت الكثير من المغتربين في بلاد الغربة يخجلون من الحديث عن ، بلد الطمأنينة والامن ، ومغترب الاحرار والثوار ، وموئل حرية الفكر وانعقاد الرجاء ... ، .. هذا الوطن الذي تفخر الالهة لو ولدت وعاشت وماتت فيه ، ... الى اخر موضوع الانشاء المليء بالمبالغات التي يصح ان يكتبها مراهق في الصفوف التكميلية . مقطع جديد نحن يا سيدي جزء من العالم ، نحب لبنان ، ونقدره حق قدره . ونحن نعلم ان لبنان كباقي البلدان ذات النظم الراسمالية ، هو موئل الحرية لمن يملك ثمن الحرية ، للطبقة البورجوازية . لهذه الحرية وجها اخر اسود قاتما هو السيطرة والاستغلال وانعدام الحرية للغالبية العظمى من اهله . ولهذا كانت الهجرة . الهجرة تكون من البلاد المتأخرة الى البلدان المتقدمة وما الهجرة من لبنان الا دليل على تأخره . ان كلامك ايها المحاضر ، ولا نعلم باي حق تستحق ان تلقي محاضرة كهذه ، هذا الكلام الذي يصور الواقع براقا على غير ما هو ، لا يخدم الا مصالح الطبقة الحاكمة . انه كلام ضد لبنان ، لانه يغض الطرف عن واقع لبنان الحقيقي .

ثم تتكلم ايها المحاضر ، وقد اعمتك طراوة الكلمة عن حقائق الامور ، وحل التشدق بالمبالغات مكان الذكاء والفطنة ، لتأتي محاضرتك تشارا فكريا لا يطرب له القارىء ، تقول : ان الديناميه اللبنانية ، المعجزة ... الخ ... هي التي حافظت على لبنان في الملمات ؛ مثلا ازمة بنك انترا الا تعلم ان هذه الديناميه كانت نتيجة انتقال البنوك والسوق المالية الى ملكية الرساميل الاجنبية ؟ ولم تكن الديناميه وليدة العبقرية اللبنانية او اي عبقرية ، بل كانت على حساب بقاء الاقتصاد اللبناني لبنانيا . ان بقاء لبنان بالشكل الحاضر لن يكون الا بمدى ارتباطه بالسوق العالمية والامبريالية العالمية . نحن نعرف ذلك ، ونحن نناضل ضد الامبريالية ، ولحن نريد مصلحة الشعب اللبناني ، بالضبط مصالح الطبقات المستغلة المضطهدة في لبنان ، ولذلك نرفض كل كيان مصطنع ، كفرحات السلم ، انا نرفض ان يبقى لبنان في ظل حرية شكلية مضمونها سيطرة امبريالية بغيضة ، ان هذه السيطرة نقيض التحرر الذي تناضل من اجله جميع شعوب العالم الثالث .

■ خاتمة

قبل ان ننتهي من هذا المقال نود الاشارة الى النقاط التالية التي تنطبق على جميع المحاضرين :

١ – انعدام المنطق التاريخي لم يبحث اي منهم في تطور المجتمع اللبناني الحقيقي ، وذلك يشمل جميع الظواهر الجغرافية والاقتصادية والسياسية والثقافية وغيرها . ان بحث سير الافراد والزهم في الجماعة ، او سير الدارس وآثارها ، جزء من بحث التاريخ ، ولكنه جزء صغير جدا ، وعندما نطغى سير الافراد على تطور المجموعات البشرية الحقيقية (المادية) في بحث التاريخ ، يتحول البحث عن كونه تاريخيا ويصبح سردا قصصيا غير مشوق .

٢ – جميعهم ينظرون الى لبنان نظرة تجريدية مثالية بل غيبية . لا يرى احد منهم لبنان على حقيقته ، لبنان الطبقات المستغلة والمستغلة ، لبنان الطائفي الذي تلحم الطائفية فيه تقسيم الاستغلال الطبقي .

٣ – جميعهم لا يرون من لبنان الا الصورة التي في اذهانهم ، وهذه الصورة تخالف الواقع . ان هذه المثالية الطائفية تخرج بهم عن المنهج العلمي لذلك فهم ابعد من يحق لهم الكلام عن اي قومية وخاصة عن ، القومية اللبنانية .

٤ – جميع المقالات في الكتاب تشيد بالحرية في لبنان . يبدو ان لهؤلاء الكتاب المحاضرين مفهوما بدائيا للحرية يتعارض مع التحرر الانساني في لبنان . لا يملك تذكرة هوية الا من ينتمي الى طائفة ، يفترض ان يسجل اسم الطائفة التي ينتمي اليها كل فرد في تذكرة الهوية . اي يفترض ان ينتمي اللبناني الى طائفة اي ، لا يتمتع اللبناني بمواطنية لبنانية الا بقدر ما ينتمي الى طائفة معينة ، الطائفة هي الوسيط بين الفرد اللبناني والدولة ، وهي التي يتحقق بها اللبناني كلبناني . هناك خيار في الانتماء الى طائفة معينة بين عدة طوائف ، ولكن لا خيار بين الدين والالحاد . اذن لا حرية سياسية ، والدولة اللبنانية اشبه بدول القرون الوسطى منها بالدول الحديثة والكلام عن القومية اللبنانية يهدف الى حماية هذه الدولة وتكريسها ، فهو كلام ذو محتوى رجعي . هنا ربما يقول البعض من دعاة القومية اللبنانية : ولكنا نريد الاصلاح ، . نجيبهم : ، نحن نبحث في الواقع ، لا فيما تريدون ، ان الواقع هو غير ما يريد هؤلاء . وان عجزهم عن فهم الواقع هو ما يجعلهم عاجزين عن الفعالية فيه . وسيبقى فكرهم طريدا مشردا في غياهب السماء . فلتهنأ بهم تلك السماء ، وعليهم ان لا ينسوا فكر لنا الارض ، وان يبعثوا الينا بمكاتيب تخبرنا عن صحتهم وسلامتهم .

□ فاضل شريل